مجلة جامعة سومر للعلوم الانسانية (ISSN: 2959-5436) (SUJHUS)
عدد خاص بوقائع المؤتمر العلمي الدولي الرابع للعلوم الانسانية والتربوية والنفسية الذي اقامته جامعة سومر للفترة من 7-8 نيسان 2025 /القسم الثالث, الصفحات 440-452

فضاء السجن السياسي في رواية شمال مدينة القصب لنعيم كرم الله

ا.د. ضياء غني العبودي [1]*

[1] كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة ذي قار ، العراق

الملخص

يعد السجن واحداً من الموضوعات التي تتصل بالواقعية ، لاسيما تلك التي تستمد مقوماتها من التاريخ ، ولعل أغلب الصور التي ارتبطت بالسجن تلك الصور المتعلقة بالظلم المسلط من قوى تمثل السلطة ، فيكون الفرد تحت ظلم لا يمكن رده أو تغيره ، في بيئة يشترك فيها الفضاء السردي من مكان كان هو المسرح الرئيس لبناء احداث الرواية، وزمان يكسب ابعادا أخرى غير الابعاد الفيزيائية ، فضلا عن العوامل النفسية التي تحيط بأبطال الرواية موضع البحث ـ شمال مدينة القصب ـ معتمدا على المنهج الوصفي التحليلي .

الكلمات المفتاحية :السجن ، الفضاء السردي، الرواية ،نعيم كرم الله ، العنف

The prison space in the novel North of the City of Reeds by Naim Karamallah

Prof. Dr. Diaa Ghani Al-Aboudi[1*]

[1] *College of Education for Human Sciences, University of Thi-Qar , Iraq*

Abstract:

Prison is one of the topics related to realism, especially those that derive their components from history, and perhaps most of the images that have been associated with imprisonment are those images related to injustice imposed by forces representing power, so the individual is under injustice that cannot be returned or changed, in an environment where the narrative space participates from a place that was the main theater for building the events of the novel, and a time that gains dimensions other than physical dimensions, as well as the psychological factors that surround the protagonists of the novel Search novel North of the City

Key word:(prison, narrative space, the novel, Naim Karam Allah, violence)

تمهيد :

يعد الروائي نعيم كرم الله أحد الكتاب الذين خلدوا تجربة اعتقالهم في مدة الصراع بين السلطة ومعارضيها في الحكم السابق ، ليعبر عن تجربة الألم والعذاب والفقد والصمود . والحقبة العصية التي مرَّ بها الشعب العراقي وحاول النظام التستر عليها بشتى الطرق . وتعتمد الرواية على بطل مركزي ـ جسد شخصية الروائي ـ الذي تلعب فيه ظروف البلد دوراً محوريا، سرعان ما تفضي به إلى حياة قسرية في سجون السلطات ، ليترك بصمة لا يمكن نسيانها في التسلط والقهر والاستلاب متمثلا في سجون السلطة السابقة ذلك السجن الذي جعل من الرواية تلتصق بواقع المكان .وهذه الرواية تقع ضمن ما يعرف بالرواية السياسية ، التي تمكن كاتبها من تقديم رؤية سياسية بمعالجة فنية ، استوعب فيها الروائي المراحل التي مرَّ فيها العراق منذ السبعينيات إلى الحرب العراقية الايرانية ، مروراً باحتلال الكويت، وحرب الخليج ، وما تلاها من الانتفاضة الشعبية، وحالات القمع للشعب العراقي خلال هذه الاحداث ، من استبداد ومصادرة للحقوق واعتقالات واسعة طالت حتى النساء . في سرد مفصل للأحداث والوقائع والالتصاق بالواقعية للوصول للإقناع ، فالعلاقة غالباً ما تكون مترابطة بين الأدب والسياسة ، و ((أن كل من الأديب والسياسي ينتميان إلى الصفوة : الأول : صفوة الفكر والأبداع والثاني صفوة السلطة والسيطرة ، كما ان كلا منهما معني بالعام أكثر من الخاص ، فالأديب هو لسان قومه وعقلهم الناطق وضميرهم المتيقظ ، من يرى ويفكر في المستقبل ويطمح للأفضل ، فيما يمسك الثاني بزمام الأمور مباشرة ، يأمر، ينهي ،

* **Email address: dr.dhyaa.g.aluboody@utq.edu.iq**

يغير ، يبدل ، أحياناً وفق القوانين والنظم ، وأكثر الأحيان وفق النزوات ولأهواء ، ودائما يهدف الى هدف محدد هو الحفاظ على الوضع القائم وترسيخه)) [1] وهذا الترسيخ جاء في نص روائي أدت فيه عتبة العنوان واللوحة المصاحبة له دورا مركزيا ، في لوحة يبدو عليها الخواء العاطفي والحزن والفقد حيث الأحداث التي تمر على شخصية البطل بعيدة عن مدينته في أهوار الجنوب ،إذ تكمن سجون السلطة في شمالها ، في لوحة بدت اشبه بالنفق المظلم حيث الامتداد الذي لا نهاية له ، ويقف فيه البطل منفردا حائراً في كيفية الخروج ، وقد سيطر اللونان الأسود والأحمر على اللوحة ، بدأت في إطارها الأول الأسود في إشارة الظلام الذي يحيط بتلك الأقبية والسجون والزنازين التي تنقل فيها البطل في رحلة الاعتقال ،إذ ان اللون الأسود من الألوان التي ارتبطت بالموت ، وهو يحمل في دلالته على العدمية والفناء [2]. فهو يترك في نفس المتلقي شعورا بالخوف وعدم الأمان ثم يأتي اللون الأحمر الذي يشير إلى الدماء والموت والمشقة ، لذا قال العرب موت أحمر في إشارة إلى شدة الموقف وقته[3] وهو قد ارتبط بالغزو والهجوم ، والتوتر والعدوان[4] فكان اللون مرتبطاً بالسجن وظلمته التي عاشها السجين وراء القضبان ، فجاءت اللوحة عاكسه لما عاشه البطل . ومن هنا كانت تمهيدا للدخول في عالم يسوده القهر والظلم والضياع من جهة ، والتحدي والصبر والا مبالاة لواقع الحياة من جهة أخرى ، إذ مثلت هذه السجون مكانا لسحق الذات الإنسانية ، فضلا عن الظلم والرعب والتسلط ، فكانت الشخصيات في اغلبها تعاني القلق من القادم . لذا حاول نعيم كرم الله أن يوثق ما مرَّ به من ذكريات السجن الذي سيق إليه بسبب تهمة سياسية ((أنت مطلوب من قبل مديرية أمن ذي قار لعلك من أعداء الحزب والثورة، هناك سترى نجوم الظهيرة أو تقطع بالهراوات مثلما يريدون))[5] ، في ظل نظام ظالم وقاهر ، لتتحول الرواية في داخل السجون إلى مشاهد من التعذيب والتحقيق في أقبية السجون السياسية ، ورحلة العذاب المستمر، فالنص الروائي كان نتاج تجربة خاضها الأديب وجسدها كرواية ، إذ هناك علاقة وثيقة وجدلية بين الواقع السياسي والاجتماعي والأدب ، فالواقع يحرك الأدب ، فيتفاعل معها [6]. لذا كانت رواية نعيم كرم الله كلها قائمة على موضوعة السجن السياسي ، فهي تبدأ وتنتهي في السجون والمعتقلات والزنازين ، وهي تصوير لرحلة في عالم السجن وعذاباته ، في سجون مؤقته ودائميه ، لتكون اشبه بالسيرة الذاتية ، لتنقل ما كان مسكوتاً عنه في النظام السابق . لذا اتضح الصوت الغاضب والمنفعل الذي قلل من فنية النص ، لان الروائي كان مهتما بتوثيق هذه المشاهد ، ليكون شاهداً على هذه الحقبة .

التوصيف المكاني للسجن :

من المعلوم أن موضوعة السجن أخذت حيزاً واسعاً في إطار المعالجة الأدبية ، لاسيما بعد توسع حالات القهر والاستبداد الذي تعيشه الشعوب في ظل الأنظمة الحاكمة . وإن تباينت الاتجاهات للسلطات فالقهر يكاد كون واحدا منذ بداية نشوء السلطات حتى يومنا هذا. من بيان طبيعة الحكم وعلاقة الحاكم بالمحكومين ، وتفشي الفساد وغياب العدالة . فلم تخرج الرواية عن مكان السجن إلا في مواضع قليلة ، فهو المكان المهيمن على النص . فجاء النص ليعبر عن مرحلة دقيقة من التاريخ الحديث، متمثلة بحكم النظام السابق ، فأحداث الرواية والمسميات لاسيما المكان تدل على تلك المدة الموغلة في الاعتقالات والتعذيب والحرمان والتحجر في العواطف. فالتاريخ القريب يعد واحداً من الروافد المهمة للرواية ، وقد استقى الروائيون منه مادتهم السردية ، وهذا ما اعتمده الروائي (نعيم كرم الله) في روايته (شمال مدينة القصب) . من خلال طرحه لموضوعة مهمة الا وهي السجن وعلاقته بالسلطة الحاكمة ، ولعل الاشكالية التي يطرحها البحث تقوم على كيف استطاع الروائي ان يشكل الفضاء السجني ؟ وكيف صور العذاب الذي واجهته شخصيات الرواية ؟ واذا كان التاريخ لم يقدم صورة واضحة عن السجون في النظام السابق ، فان نعيم كرم الله استغل تجربته الشخصية لبناء عالمه الخيالي ، مجسداً حالة القمع لإثارة المتلقي وجعله يشعر بما يتعرض له السجين من امتهان وسحق لكرامته والتعذيب في تلك السجون. معتمدا على الوصف في تصوير ذلك لينقل لنا هول المكان ((دخلنا, وكان ذلك بداية الجحيم لرحلة ليس لها زمن محدد, رحلة لا تنتمي إلا لذلك الزمن الخاص والمتفرد برعبه وحروبه وعذاباته ومشاعره. زمن من الصعب أن تستوعبه لغة ما على وجه الأرض, إلا لغة جديدة لسديم ذلك الجو الخارج من الجحيم السفلي لهذا الكوكب العجيب والمعزول. وقد بدت القاعة وكأنها موجة بشرية تزدحم بصنوف من البشر حيثما وجدوا في هذه البقعة من الأرض.)) [7]، إذ نلحظ أوصاف السديم والجحيم السفلي والكوكب العجيب في إشارة لقسوة المكان، إذ شكل المكان((شبكة من العلاقات والرؤيات التي تتضامن مع بعضها لتشييد مواقع الأحداث ، وتحديد مسار الحبكة ورسم المنحى الذي يرتاده الشخوص)) [8]، فسجون السلطة لم تكن عادية ، وانما كانت سجونا عنوانها العذاب المستمر والخوف من المجهول وضياع الأنسان وتشتته ليس في السجون فقط بل حتى المحطات الأولى لهذه السجون((هذه الأماكن المنسية أماكن سجون ومعتقلات الانضباط العسكري هي الأخرى معاقل للموت والتعذيب والنسيان, ولطالما فقد شباب أرواحهم فيها من جراء الزحام والأمراض والجوع

والعفن وهي واحدة من أساليب النظام المهينة والمدمرة لكل من يدخلها.)) [9] حيث تكتظ تلك السجون بإعداد كبيرة مما يجعل الموت أمراً ملازما لتلك السجون فـ ((في معتقلات الاحتجاز والتعذيب في بداية صعود الديكتاتورية, شيء اعتيادي أن يموت الناس دون أن يعبأ بهم أحد حيث يجرون جثثهم مثلما تجر أكياس القمامة دون احترام لرهبة الموت))[10].

ولم يكن الخلاص من تلك السجون إلا بطريقتين الجنون أو الموت ((لقد كانت المعتقلات في ثمانينيات القرن المنصرم هي عبارة عن ورش تعذيب, فيها طواقم كاملة تحول ساعات النهار إلى مجزرة وجو وحشي لا نتيجة له سوى الموت أو الخلاص بأعجوبة ما, فكأنما يمهدون الطريق لنتيجة واحدة وحتمية هي الموت أو الجنون أو النجاة بأعجوبة)) [11].

ولعل أبشع ما في تلك السجون هي غرف التحقيق والزنازين المنفردة ، لان التحقيق يعني الوصول إلى مرحلة التعذيب والشتم ، وفي مرات كثيرة غياب الوعي للسجين والموت ، نتيجة لأدوات التعذيب المتنوعة((أخرجوهم من الغرفة وأخذوهم إلى غرفة التحقيق .جرونا جميعا وادخلونا إلى غرفة عارية الجدران ليس فيها شيء سوى سلاسل وكرسي حديدي ومنضدة عليها آلة تشبه الهاتف الأرضي ترتبط بها أسلاك كهربائية موصولة بنقطة في الجدار, وهراوات وأسلاك قابلوات بطول متر من تلك التي تدفن في الأرض وثلاثة هراوات سوداء لكنها تختلف, غير خشبية وتبين فيما بعد أنها جهاز صعقات حارقة تسمى (سوزان), ويتدلى من السقف ومن المكان التي تعلق فيه المروحة السقفية, كلاّبات حديدي وأصفاد وقطع قماش.))[12] فهي غرف فارغة ليس فيها سوى أدوات التعذيب ، وهي أدوات تبدو من خلال الوصف مخصصة لكل أنواع العذاب كالجلد والصعق الكهربائي والتعليق في السقف .

وهذه الغرف هي أشبه بيوم القيامة ، يكتسب فيها الزمن بعداً نفسيا خارج الإطار التاريخي ، نتيجة لحالات التعذيب القاسية ((إنها قيامة مصغرة, زمنها العذاب والألم والافتراس, ودقائق دموية كالدهور, يتشتت فيها العقل ويشعر المرء فيها بأنه وحيداً ومخذولاً, ومحاطاً بالضباع في صحراء البعد والمجهول.)) [13].

ولقد عمد الروائي إلى وصف دقائق تلك الغرف ووصف الجزئيات المادية فتكررت الاشارة إلى الأبواب والأقفال والزنازين والروائح الكريهة ، في محاولة منه لإظهار الواقع المرير في تلك السجون والأثر الذي تتركه في الإنسان ((قادونا إلى غرفة جرداء, ثبت في سقفها كلاليب حديدية من ذلك النوع الذي يثبت للمراوح السقفية, وكرسي وحبال, وجهاز كهربائي يشبه شحن التلفون العسكري, وأداروا الاصفاد إلى خلف الظهر وقيدونا, وضعوا الكّلاب فيها وأزاحوا الكرسي, مثل طريقة الشنق من الأيدي وهي من أسوأ طرق التعذيب ومن نتائجها الشلل وكسر لوح الكتف, إذا تعلق أحد عناصر الأمن برجلك وجرها إلى الأسفل.)) [14]. ولا يخفى على القارئ الكريم تكرار الروائي الوصف الدقيق لتلك الأدوات، ومرد هذا الوصف هو الألم الكبير الذي سببته تلك الأدوات للسجين لاسيما تعليق المتهم بسقف الغرفة وسحبه للأسفل .

وهو يقدم مقاطعا كثيرة مغرقة في الصور السردية الساكنة لتلك الزنازين تعكسها النصوص المؤطرة لتحقيق وظيفة أثارة انفعال القارئ في وصف الضوء ، واقترانه مع الليل وما يشكلان من حالة الخوف والترقب ((كان ضوء الزنزانة رقم 2 كئيباً, ليس خافتاً, لكنها نصف مضاءة وبصعوبة تتبين الأشكال والصور, وفي الليل يتحول جوها إلى حالة من الفزع تستمر حتى الصباح بسبب الفتح والغلق للأبواب وجر المعتقلين المطلوبين إلى الطابق الثاني)) [15].

فضلا عن هذه الزنازين تشبيه عربة القطار في ضيقها وطولها ، وهي تسير في طريق مجهول كناية عن مصير السجناء المجهول ((بدت الزنزانة وكأنها عربة قطار ليل عابرة في قفار موحشة, عربة تسير للمجهول في ليل بهيم وغامض, ركابها صامتون ويذبل النوم على جفونهم. صغاراً لم يلبث الزمن فيهم طويلاً في الحياة التي ألقوا على خشبة مسرحها. وبدافع حثيث اختاروا هذه العربة, التي يأخذها هذا القطار إلى محطات مجهولة ومقفرة.)) [16].

والمساحات الضيقة لتلك الزنازين التي تؤدي إلى الموت ، ووصفها بشكل يتيح للكاتب التعبير عن انفعالاته الداخلية ، تحت تأثير المشهد ، وبيان مدى قسوة السلطات هذه السلطات التي تعرف مسبقاً بان وضع السجناء بهذا الكم سيؤدي إلى الموت وهو ما تهدف إليه ((بدت الزنزانة الضيقة وكأنها كتلة بشرية واحدة, كائن بشري واحد تتلاصق أجزاؤه ليصبح جسداً واحداً من خمسين بشراً حشروا هنا في صندوق الموت هذا. كانت هناك مفرغة هواء في الجدار يسميها المعتقلون فتحة الحياة, يموت الأشخاص حين تتوقف أو ينقطع التيار الكهربائي, يسقط المرضى والضعاف موتى فيأتي عناصر الأمن للمعتقل الى مسؤول الزنزانة فيسأله كم من الموتى عندك.)) [17] ان وصف المشاهد لتلك السجون بشكل دقيق هي محاولة

من الروائي لخلق عالم آخر مواز للعالم الواقعي ، ونقل المأساة الحقيقية لتلك السجون من أجل نقد تلك الحقبة وفتح الأبواب المغلقة امام القارئ ، فالرواية هي الجنس الأدبي الأكثر قدرة على كشف حالات القمع والتسلط بما تمتلك من أدوات وفسحة نصية لا يمكن توافرها في الاجناس الأخرى ، التي ربما تلجأ التأنق في اللغة ، إذ ان الرواية تلجأ إلى ما يوهم بان ما حدث حقيقياً ، لا سيما المواقف في غرف التعذيب ، فقد حاول الروائي ان يدخل من هو خارج السجن إلى السجن ليعرف مدى القمع في تلك الغرف والزنازين ، أي ان الرواية تحاول ((أن تورط القارئ به ، بمعنى تدخله في جوها وتضيق عليه ، وتجعله يحس بمدى الاهانة والعذاب اللذين تعرض لهما السجين))[18].

ولما كانت المحاكم مركز العدالة وهي بصيص الأمل عند السجين، إلا أن المحكمة في الزمن السابق فقدت مكانتها وأصبحت صورية وامتدادا إلى السلطة ، إذ انتشار رجال الأمن واستخدام العنف الجسدي والنفسي ((كانت هناك مجاميع قبلنا من قضايا أخرى, وإرسالات من مختلف مدن وأصقاع البلاد, كل يجلس بجهته ينتظرون المناداة الفاصلة بين الموت والحياة, للمرافعة السريعة والصورية لحسم قرار الزمن المتبقي للواحد على قيد الحياة, يحيط بهم رجال الأمن بزيهم المميز وأشكالهم التي توحي للعنف مدججين بالبنادق والمسدسات والقيود, في جو من الشدة والزعيق يختلط بنزع الأصفاد وإرجاعها. بينما علقت لوحة على بوابة القاعة العالية, مكتوب عليها قاعة المحكمة. من هذا المكان الذي يبدو وكأنه مسرح عبث لمسرحية صماء, تقتطف أرواح بشر حلموا بيوم جديد وانتهوا بصفحة الذهول تلك, وتساؤلات مبهمة, عما آلت إليه حياتهم في موقف أعزل ومخذول وهمجي, دون ناصر ولا مدافع من كماشة الموت تلك التي لا ترحم ولا تفهم لغة الصفح والعفو والإنسانية)) [19] أن اعتماد السلطات على التنكيل بمعارضيها أطرته بمبررات واكسبته الشرعية من خلال الأحكام الصورية التي تصدرها :

((وراح يسأل سؤاله الثابت منذ أزل تلك المحكمة:

- هل أنت مذنب أم برئ. فيأتيه الجواب

- بريء

دون ان يقتنع بالجواب فيرد بزعيق وألفاظ قاسية، بعدها سأل,

- هل لديكم محامي .قال الجميع

- لا, ليس لدينا محامي.

وهذا السؤال هو جزء من سخرية السلطات بالمعتقلين)) [20].

إذ لا تختلف صورة المحامي عن مسرحية المحاكة الصورية ، بل هو ناطق بلسان السلطة ، ويطالب بأقصى العقوبات بحق من يدافع عنهم لتكون المفارقة القاسية ، ولعل وصف المحامي بالقصر والعاهة الجسدية (العرج) جاء ليعبر عن عدم تحقيق العدالة فهي عدالة عرجاء غير سليمة ((من باب صغير على يمين المدعي العام خرج رجل قصير أعرج يرتدي زي المحاماة, عباءة سوداء ذات حواف باللون الأخضر. خرج مبتسماً, يحمل حقيبته, وقف إزاء القاضي وراح يعدد الحركات الهدامة في التاريخ ودورها التخريبي, وأردف قائلاً,

- وما هؤلاء سيدي القاضي سوى امتداد لأولئك المخربين ولهذا أنا أطالب بإنزال اشد العقوبات بهم.

أصابنا الذهول من حماس المحامي وموقفه العكسي, وكيف يجوز لمحامي الدفاع أن يطلب من قاضي محكمة بإنزال أشد العقوبات بشباب عزل أنهكهم التعذيب وضنك الزنازين وانقطاع تام عن العالم الخارجي. لقد تلاشت فسحة الأمل الكاذبة تلك وها نحن نقف أمام حكم وجلاد, ليس هناك من يدافع عنا.ابتسم المحامي مرة أخرى وقال:

- لكني أعتقد أن قلب الثورة كبير وقائدها الملهم, أن تعطف عليهم إذا كانوا يستحقون العطف. انتهى سيدي القاضي, وشكراً لكم))[21].

الدلالات النصية للأبواب :

شكلت الأبواب ايقونة واضحة في السجن ، فاذا تحركت الأبواب والإقفال حتى وان كانت لغير التعذيب فهي تثير الرعب والخوف لأنها ارتبطت بالتعذيب الليلي ((جاء الحراس بالعشاء بعد زمجرة وفتح وإغلاق الزنزانات, والصوت الذي تحدثه المزالج والأقفال ورنين المفاتيح, ذلك الصوت الذي بقي في قعر الذاكرة لحالة الرعب والفزع الليلي على مرّ الشهور والأيام.))[22].

ولعل هذه المساحة التي شغلتها الأبواب، في الحديث توحي بالحيرة والقلق ، اذ ان الأبواب تحمل مع فتحها إيقونة ذات بعدين ، الأول خلق المعجزة وتحول اليأس المميت الى حياة جديدة عند الخروج منه ، والآخر ما تحمله من القلق والخوف والعذاب عند دخول رجال السلطة ، وما يثيره في نفوس السجناء ، فكان الباب المرتكز الأساسي في حديث السجن ، فهو البداية / والنهاية ، الحياة / والموت ، ولعل إضفاء صفات المنعة والحجم الكبير على هذه الأبواب يعكس حالة اليأس القاتل في الخروج منه.[23] 0 ((فُتح باب الزنزانة بقوة, وبحركة سريعة ظهر اثنان من الحراس أحدهم ضخم وله شارب كثيف, يضع الاصفاد وقطع قماش في نطاقه ليعصب بها عيون المعتقلين, بينما الآخر طويلٌ يحمل رشاش حراسة من نوع كلاشنكوف, ويقف خلفه, دخلوا وسحبوني, تغيرت الوجوه, وساد صمت وخوف لأن مثل هذا الدخول السريع والمفاجئ يعني الصعود إلى التحقيق)) [24] فوصف الشخصيات الأمنية بهذا الشكل لتحديد أدوارها من قبل الراوي العليم ، فأحدهم لتوثيق المتهم والآخر لتوفير الحماية ، هو تمهيد إلى حالة الخوف والرعب التي تأتي بعدها حيث غرف التحقيق والتعذيب .

فشكلت بوابة السجن في (مديرية الأمن) الموت المحتم وغالباً ما يكون هذا الموت متمثلاً في التعذيب في أوقات الليل الذي يعد وقت الهدوء والسكينة للإنسان الطليق ولكنه وقت العذاب والخوف والتسلط للسجين ((. فجأة يفتح الحراس الباب ويدخلون إلى الزنزانة, ويجرون المطلوب دون ذكر اسمه. يمسكونه من شعره ويجرونه إلى الأعلى بعنف, وكل ذلك يحدث في الغالب بعد منتصف الليل)) [25].

فهذه الابواب تجلب معها الموت حين تفتح يفتح معها المصير المجهول ((في وقت مبكر من صباح يوم السبت, اصطكت أبواب الزنزانة وأطل من الكوة الصغيرة التي تخترق بابها رئيس الحراس بشاربه الكث وصوته الذي يثير الرعب صارخا, أنهض يتبعها سيل من الشتائم مختلطة بوقع أحذية عناصر الأمن, وصوت ألقاء الاصفاد على البلاط وأردف قائلاً, انتبه؛ ساد الصمت. ثم قال :

- سأقرأ الأسماء والذي يرد اسمه في القائمة يقف خارج الباب, ولا يتحرك, والذي يتحرك أنزع روحه من جسده, مفهوم.)) [26]، وتؤكد ثنائية الصوت والصمت الحركة والسكون ، فما ان يسمع صرير تلك الأبواب حتى تصمت الأفواه عن النطق وتتطلع الأبصار إلى المصير المحتوم ((سمعت صرير أبواب وصوت إصطكاك المفاتيح, ذلك الصوت الذي يثير الفزع, إنه جرس الخوف أو جرس الإيذان ببدء حفلة تعذيب جديدة. كان الحراس يضعون عناقيد المفاتيح في أحزمتهم تتدلى, كأنها حشرات أبواب الجحيم.))[27].

رجال الأمن والجواسيس:

إن ضباط الأمن الذين يأخذون على عاتقهم انتزاع الاعترافات من السجين هم الوجه الآخر للسلطة القمعية ، فهم يمتلكون كل السيادة لتي تمتلكها السلطة العليا ، لذا يلجأون إلى التعذيب ، اعتباراً من استقبال السجين إلى العنف والتخويف والأصوات المرتفعة وصولاً إلى الموت ((الآن نحن في قبضة أقوى جهاز لدى الدولة, يتصرف فوق القانون لا بل هو القانون نفسه, وهو من يصنع السلطة دون حسيب ولا حدود لسلوكه وتصرفه, يعامل البشر مثل أدوات مستطرقة دون حدود لقسوته وأفعاله, وليس هناك من يحاسبه ويسأله ويحد من أفعاله أو يقول هذا خاطئ وهذا صحيح, وهذا يجوز وذاك لا يجوز فعله.))[28] فهم يتصرفون فوق القانون ،و يتصفون بالقوة الجسمانية ((استلمنا شخص فضٌ هذه المرة وله بنية قوية وشوارب يقف عليها الطير, وأدخلنا إلى داخل غرفة في هذه الخربة بزمجرة ووعيد يكاد يدك تلك البناية المتداعية.))[29].

لذا يستغل المحققون الضعف الجسدي والنفسي للسجين ويمنعونه من الشعور بالراحة ، ويتخذون من الخداع وسلة لانتزاع المعلومات من خلال اظهار الخوف على السجين ، ومحاولة اقناعه بان الاعتراف يؤدي إلى النجاة والحصول على الحرية ((- أعترف (أحسن لك) حافظ على روحك, ليس هناك شخص ما يقع بين يدي رائد قيس أبو الليل دون أن يعترف, وإلا يموت ويقطع ويلقى للكلاب. نحن ننصحك, أنت ولد شاب وكسرت خاطرنا قبل أن يأتي الرائد وتتغير الأمور, نحن بصراحة نتكلم من صالحك.))[30].

إن القسوة والعنف يظهر جليا في النصوص المقتبسة ليس من خلال وسائل التعذيب وأدواته فقط ، بل من خلال التسميات التي يحملها ضباط الأمن والتي تثير الرعب في نفوس من يسمعها ، (كقيس أبو الليل ، وفلاح عاكولة ، وأبو شذى توثية) والتي تعكس العنف ، فقيس أبو الليل يستخدم التعذيب معتمدا على الزمن لانتزاع الاعترافات ، فغالبا ما يكون تعذيبه للسجناء بعد منتصف الليل لاستغلال الضعف الجسدي للسجين ، إما فلاح عاكولة ، فالعاكول يقصد منه العاقول النبات الذي ينمو في الأراضي المهملة ويتصف بفروعه الشوكية الحادة تعبيراً عن قسوته في التعذيب ، اما لقب التوثية تلك اللفظة الشعبية التي يقصد منها العصا الغليظة والقصيرة ، وهي مأخوذة من شجر التوث أو التوت والتي تتصف بالقوة ، وهو ما تعكسه النصوص المؤطرة ((كان قيس أبو الليل أشد المحققين قسوة وهمجية كما لديه قوة وحماس أن يبقى طول الليل دون كلل أو ملل, ولهذا سُمي قيس أبو الليل.)) (31).

والوصف الجسدي الذي يثير الرعب في نفوس من يسمعه ((فلاح عاكولة هذا لا تعرف رتبته في رتب السُلم الأمني, أنما هو عنصر يرتدي ملابس مدنية, ومسؤول مباشر عن الأقسام المغلقة, له قامة طويلة, وشاربان خفيفان, وعيون جاحظة يغلب عليها الاحمرار ومعالم دالة على الشر, لا يكل ولا يمل من التعذيب على مدار اليوم كله, وحتى ساعات متأخرة من الليل, كائنٌ كان قلبه من الحجر والقسوة وانعدام الضمير, لم يدخل يوماً إلى القسم دون أن يمارس أبشع أنواع التعذيب مع السجناء, حتى فقد البعض منهم عقولهم وأصيبوا بالجنون وانتحر البعض الآخر)) (32) فنحن إمام شخصية متوحشة وقاسية ، تمهد للقارئ الشعور بالخوف والرعب للمكان الذي توجد فيه الشخصية، فيدرك العدائية التي تصل بالسجين إلى الجنون أو الموت ، بل يقرن (فلاح عاكولة) نفسه وعلى لسانه في قسوته ومكره وخداعه بالشيطان أو بالأحرى مجموعة شياطين ((قال لنا ذات مرة يتحدث عن نفسه, أن ربكم خلق شيطانين, أحدهما هذا الشيطان الذي تعرفونه ويعرفه الناس كلهم, والشيطان الثاني عندما أراد خلقه جلب أربعين شيطاناً, وجمعهم وعصرهم وخلق منهم شيطان واحد هو أنا)) (33). فالمحقق حين يستخدم القسوة يحاول أن يثبت ولائه للسلطة ، وهو ايضا نوع من الشعور السادي الذي يتولد لديه نتيجة الزمن وفقدانه لإنسانيته ، وهذا ما يتضح في تقديم شخصية الضابط أبو شذى (توثية) ((كانت لرائد الأمن أبو شذى (توثية) وهي عبارة عن رجل (قنفة) يستخدمها في التحقيق, فإذا أراد أن يفصل ساق المعتقل عن الركبة, يضربه على المفصل وبعدها لا يقوى على المشي فيضطر للزحف بدل المشي.)) (34) إن اعاقة المتهم وعدم قدرته على المشي اشارة إلى محاولة إيقافه عن العمل وممارسة نشاطه ، فضلا عن حالة الاهانة لسجين وإعادته إلى مرحلة العمر المبكرة ، امعانا في اذلاله واهانته .

لذا يكون النمط العام عند رجال الدولة بان السجين هو خارج عن النظام ، لذا يجب تدميره جسديا ونفسياً ، فهو في نظرهم عدو يهدد المجتمع ((كان ضباط الأمن ومساعديهم في ذلك الزمن الهمجي كأنهم مخلوقات لا علاقة لها بالصنف البشري, وإنما روبوتات حديدية عديمة المشاعر, تستغرق في السخرية من الإنسان المعذب, وكأنها تمارس هواية جميلة وممتعة, تسقط آدمية الأنسان واعتباره وكرامته وخصوصيته وكل شيء فيه حين يدخل مديرية الأمن العامة أو المديريات الفرعية أو حاكمية المخابرات, أنها مصانع عملاقة لصناعة موت رهيب الألم, وإنسان نُزعت روحه وقواه.)) (35).

ولعل المحيط الخارجي للسجن لم يكن أقل شأنا عن داخل السجن ، فهو يبعث على الخوف والترقب والتضييق على الحريات، فهو عبارة عن سجن لكن بشكل أوسع ، يجعل الأنسان يشعر بانه مكبل بالقيود وان كان حراً ((وأصبحت عائلتي ضحية تسحقها الأيام ولا يبالي لها أحد, لا بل هي في قلق وخوف من مراقبة الأنذال رغم بساطتها, أولئك الذين لا قيم لهم سوى أنهم يتطوعون للعبودية من أجل الحاق الأذى بالآخرين, دون أن يعبأوا بما يسببونه من كوارث لهم.)) (36).

لذا فان القمع في خارج السجن لا يختلف عن داخله ، إلى درجة وكأن كل الناس تحولت إلى عيون جواسيس ، وبهذا يعيش الإنسان السجن الخارجي والداخلي حين تتحول الدولة إلى دولة مخابراتية ((رغم أن كل الناس عيون, وتتحين الفرص, والبعض ليس متطوعون فقط, أنما ملفقون يريدون بأي طريقة أن يكتبوا تقاريرهم إلى السلطة))(37).

ومن الجواسيس من يكون داخل السجون الذين ((راحوا يقومون بدور عناصر الأمن داخل القسم. يستفزون السجناء بسب الرموز المقدسة, ويشاركون في التعذيب مع عناصر الأمن, ويقدمون الوشايات والاتهامات الباطلة إلى فلاح عاكولة, يعّدون على السجناء أنفاسهم ويأمرونهم كيف ومتى ينامون ومتى يستيقظون ويطوفون على الزنزانات يمنعون الكلام أو حتى العطاس. أصبحت هذه المجموعة المكونة من صباح ديالى وكريم دوخي وجواد خضارة وأبو أكرم الحلي وآخرين, عبارة عن حضيرة أمن حكومي تمارس التعذيب وتنخرط مع عناصر الأمن الرسميين في أي أجراء ضد السجناء)) (38) فالرقابة غير المعروفة هي أشد تأثيراً من الرقابة المعروفة ، متمثلة برفاق السجن لمعرفة تحركات السجناء ، ومن ثم يتحول بعض السجناء إلى عيون للسلطة ، لذا لم يكن حراس السجن وعيونهم إلا تمثيلا للسلطة ، وممارستهم للتعذيب

الجسدي والنفسي من أجل الحصول على الاعترافات . فهم يراقبون السجين خوفا من التمرد ، ويؤمنون بإن هؤلاء السجناء هم ضد السلطة ، وهم في حقيقتهم لا يختلفون عن السجناء فهم منبوذون أيضا وسجناء بلا جدران، لذا عدّ السجان ممثلاً للسلطة ، تكون سيطرته مرعبة على السجناء ، لأنه مصدر التضيق والتعذيب و الإهانة . فضلا عن ذلك يعوض الشعور بالدونية ((وهو سجين منها يدير شؤونها مثل توزيع وجبة الطعام وتوزيع مكان النوم بين النزلاء, والوشاية في حالة حدوث كلام أو حديث بين السجناء حول أي قضية مهما كانت.)) [39]. وقد صور بعضهم دور الجواسيس في الأنظمة القمعية في رغبتهم معرفة ماذا تعني حين ترمش العين بقوله ((آه لو هناك حيلة ينفذ بها الأنسان إلى ما يدور في عقل الآخر ، لعرف البصاصون (المخابرات) دلالة رعشة لعين ، أي الخواطر التي دفعت الأنف إلى اختلاجة سريعة)) [40] فالإنسان في الدول القمعية حتى وان كان خارج السجن يكون داخل سجن كبير متمثلاً بالرقباء .

فالنص الروائي يعمل على نقل صورة من صور المجتمع في فترة عصف العنف فيها من خلال نقل أزمة الشخصيات ووقوعها ضحية الشبهات . عن طريق استرجاع الماضي وحفريات التاريخ من أجل اعادة تصوير مأساة مجتمع عاش في عالمين متناقضين . عالم السلطة المتنعم بملذاتها وعالم الطبقات الشعبية المسحوقة التي تعاني القهر والمعاناة . و((تقوم لغة الرواية في تكريس الواقعية وتعميقها لأنها أكثر مرجعية (أي مطابقة للتجربة الإنسانية) من لغة سائر الأنواع الأدبية ، من حيث أن تلك اللغة لا تغرق في التأنق الأسلوبي الذي يفقدها موثوقيتها)) (41) .

التعذيب :ويقسم في النص الروائي إلى قسمين :

1- التعذيب الجسدي :

شكل التعذيب الجسدي ملمحا واضحاً في الرواية ، وهو ما يلحق الجسد من ضرب وجلد وطعن بالأسلحة تصل حتى الموت، وكذلك الصلب .فقد شكل الفقد عنصرا اساسياً في احداث الرواية ، هذه المشاهد تدفع المتلقي ليشعر بالتعاطف والأسى للصور المؤلمة التي تضج فيها الرواية . ويقدم السارد صورا وصفية مرعبة لمن يدخل غرفة (صاحب العذاب) التي يتم فيها ممارسة التعذيب ، في تصريح صريح إلى مصير من يساق إليها ومن مختلف الجنسيات ((عراقيون وهنود وباكستانيون وأشخاص متهمون بالتبعية, عسكريون ومدنيون, عقلاء ومجانين. تحس وكأن شِباكاً قد نُصبت في الشوارع والطرقات لصيد البشر, تعلو وجوههم الدهشة, ويشتت أذهانهم الرعب. كان المجانين يتبولون على الحيطان وأجسادهم حمراء متهرئة من كثرة ما لسعوا بالسياط التي تستخدم من أسلاك الضغط العالي بين أعمدة الكهرباء وآخرون نالوا نصيباً منها يئنون ويشتكون دون أن يسمعهم أحد, وكلهم جاءوا بسبب الاعتقال العشوائي أو الاشتباه بهم بأنهم ينتمون لأحزاب تحاربها السلطة بضراوة, أو أنهم من جنسيات مختلفة.))[42] فالروائي يعتمد على تقنية الوصف لينقل تفاصيل دقيقة نالت كل الطبقات ومختلف الجنسيات لأنه عاش تلك للحظات ، فسيطر الراوي العليم على مفاصل السرد .

فالرواية تنقل عالم السجن نقلاً دقيقاً ، موضحة العنف الذي يعانيه هؤلاء السجناء فيصف ذلك بقوله : ((مضت الليلة تلك في ممر مديرية أمن ذي قار بوصلات طويلة من الضرب من قبل الحراس ولسع السجاير والناصحين الذين يوشوشون في إذن المعتقل بصفة ناصحين ويهمسون في أذنه (انصحك اعترف احسنلك)) [43] . ولعل حجب العين للسجين السياسي عن الرؤية يدفعه إلى عدم القدرة على الإدراك ، لذا يكون التركيز على اضعاف الجسد للسجين ليكون مدخلا لانهياره ، فعدم تحديد ورؤية مكان الضرب يجعل السجين في دائرة الشك والضعف ، ولا يتوقع متى يبدأ التعذيب وفي أي مكان يكون ((نسمع ولا نعرف ما يجري بسبب العصابة اللعينة التي تحجب الرؤيا عن المحيط, وتحس إنك أعمى بين أعداء مبصرين, لا تعرف من أين تأتيك الصفعات فتتحول إلى كبش مع ضحكاتهم الهازئة))[44].

وهو ما يؤدي إلى الموت في كثير من الأحيان ، وفي اثناء ذلك لا تتردد السلطة في إيجاد الخديعة والمكر للتغطية على افعالها ((قبل مدة قليلة مات في التحقيق شاب اسمه قاسم, من مدينة الشطرة لم يتحمل التعذيب فجاءته ضربة أنهت حياته فحملوه وألقوه في الصحراء, وذهبوا لأهله قالوا لهم أن ابنكم هرب من مديرية الأمن والآن يختبئ عندكم فعليكم إخراجه)) [45].

لذا كان الجسد هو الهدف الأول لرجال السلطة ، إلى درجة ان هذا التعذيب يصل إلى غياب الوعي ، وكأن هذا التعذيب يهدف إلى انتزاع الأفكار التي يؤمن بها السجين ، عن طريق القسوة والعنف كما تنتزع الروح من الجسد الذي تراه السلطة نقطة الضعف عند السجين ((انهالوا عليّ بالضرب بالقابلوات, وبآلة حارقة ولاسعة تحول الجلد إلى شواء, ثم علقوني في السقف وأوصلوا جسدي بالكهرباء, وراحوا يحركون عتلة أشبه بمقبض البدالة. تحولت الغرفة إلى مسلخ, وسرت الكهرباء في جسدي, وبعدها لم أشعر بشيء. اعتقدت أنني متّ حين فقدت الوعي, ولا أعرف الاثنين اللذين دخلا من هم؟ لكنني

اعتقدت أنهما كريم السيد وشخص آخر, علّقوهما إلى جانبي عندما يفقد المعتقل الوعي من جراء التعذيب الكهربائي يلقون عليه دلوا من الماء ليستفيق)) (46).

إن السجون السياسية تختلف عن السجون العادية في المراحل التي يمر بها السجين ، وفي الآثار السلبية الجسدية والمعنوية التي تصيبه ، في محاولة لإخضاعه والنيل من مبادئه ، ومن هنا يختلف عن السجن العادي الذي يوضع فيه المجرمون الذين خرقوا القانون الاجتماعي وهددوا أمن الناس وحياتهم .(47) ((وهناك طرق أخرى كثيرة منها الدريل والمنشار ومعظمها مورس في أقبية الأمن العامة, وهي أكبر معتقلات التعذيب في أيام عقد الثمانينات, وهذه الوسائل المميتة, أو التي تجعل المعتقل على شفير الموت, هي التي أدت إلى فقدان الكثير لصمودهم, وانهيارهم ووقوعهم في فخ الاعتراف, مثلما أدى التعذيب المستمر والمتواصل إلى فقدان البعض لقواهم العقلية.)) (48). فيعمد الروائي على وصف مشاهد مأساوية تعكس واقع تلك السجون في التعذيب الجسدي والنفسي معاً ،فيمارس السجان أبشع أنواع التعذيب ، بل يستغل الطبيعة ليرفع من نسغ التعذيب ، فيجمع بين حرارة التعذيب وبرودة الماء، كما ان تجريد السجين من الملابس أحدى وسائل رجال الأمن للتقليل من القيمة الانسانية للسجين ((في بعض الأوقات يأخذوننا عراة إلى قاعة كبيرة فيها خراطيم مياه باردة لغرض أن يغسلونا أو نستحم ولكنها حفلة تعذيب جماعية. يخرجوننا من الزنزانات مجردين من الثياب ويسوقوننا بالعصي ويصرخ أحدهم هازئاً بنا- (أهااااا.هاي, أنتم مع الفيلم الجديد جزيرة العراة هوووو) وينزل علينا فريق منهم بالضرب, ثم يوجهوا خراطيم المياه علينا في قلب الشتاء القارس, ويرشوا علينا مسحوق غسيل, وأثناء توجيه الخراطيم يضربوننا فيختلط ألم البرد مع الماء مع لسع الهراوات, ثم نعود مثلما ذهبنا وبنفس الطريقة إلى الزنزانات دون أن ننشف أجسادنا من الماء ثم نرتدي هذه الأسمال المتهرئة.)) (49).

وغالباً ما تلجأ السلطة إلى وسائل جسدية ونفسية لانتزاع الاعترافات فتجلب النساء والأطفال امام السجين لتدمير كيانه وكسر ارادته ((في الأمن العامة طرق أخرى للتعذيب, منها جلب النساء وتهديد المعتقل إذا لم يعترف وكذلك استخدام الأطفال الرُّضع والتطويح بهم في الهواء, وغرفة الزجاج والمسامير والسحب وقلع الأظافر)) (50).

فالروائي كثيراً ما يركز على أدوات التعذيب التي يستخدمها رجال الأمن في تعذيب السجناء ((يأتون في الليل ويخرجوننا على شكل مجاميع, ويصفوننا في الممر, ويأمر فلاح عاكولة عناصر الأمن ببدء حملة التعذيب بالهراوات ويقول لا تتركوهم إلى أن يقولوا (أحدٌ. أحد) مثل صاحبهم بلال))(51).

إن سر النجاح في الرواية السجنية اذا صح التعبير يكمن في واقعيتها ونقلها لمشاهد القسوة بتفصيل دقيق ، ومشاعر صادقة وما تعرض له السجين في مختلف السجون ، وتصوير كل أشكال القهر والاستلاب ، وصمود الإنسان المضطهد ، وقوته بوجه آلة السلطة بكل اشكالها ، ((أحكم تقيدي إلى الأنبوب الحديدي المثبت بالجدار, وهو المربط التقليدي لكل معتقل يدخل مرحلة التحقيق وعادةً ما يسمى الممر, حين تكون في هذا المكان مع بدء المرحلة الأولية للتحقيق تتحول إلى كيس ملاكمة للمنتسبين وطاقم التحقيق, مثلما تتحول إلى مطفأة سجاير كبيرة, فكل من يمر يلسعك بسيجارته في أي مكان شاء من جسدك, بنشوة طفولية غريبة, وغالباً ما كانوا يلسعوننا بسيجارتهم في منخفض الرأس وأعلى العنق, لتشعر بمزيد من ألم النار, في حين أنت معصوب العينين ومقيد إلى الجدار, ترفس من شدة الألم فيزداد الركل ليكمل حريق جلدك الذي أنضجته سيجارة شرطي الأمن.)) (52).

إن التعذيب في تلك الغرف الضيقة تضع القارئ أمام شخص آخر يمتهن جسده ، لأنه يطالب بحريته في وطنه فيجد في ((تعذيب السجين معادلاً موضوعياً ، ومن ثم يقبل على القراءة ، لأنه يرى في السجين صورته)) (53).

2- التعذيب النفسي : وهو ما يتصل بإهمال السجين وعدم محاكمته ، وتركه ينتظر النهاية من دون أمل ، وانقطاع الاتصال بالأهل ، فضلا عدم وجود مكان للنوم ، أو قضاء الحاجة إمام الآخرين من أجل جعل السجين محط سخرية ، والحرمان من اللبس والعلاج والنظافة والشتم ، ((تطلعت في وجوه الأشخاص, كأنهم سجنوا في كهف منذ سنين, ملابس متهرئة ولحى طويلة وشعر ترك منذ زمن ورائحة لا شبيه لها, ربما هي رائحة الموت.)) (54).

ولعل انتشار الأمراض أحد أبرز العوامل التي تواجه السجناء وتشكل ضغطا نفسيا كبيراً((حتى الوجوه بدت صفراء وشاحبة تحملها أجساد هزيلة, قضى على حلمها رهبة المكان وعالمه المشحون بالخوف والترقب وشبح الإعدام ... مع الأمراض الجلدية برزت أمراض أخرى غريبة وقاتلة, فاقمها الزحام في الزنزانات الذي راح يكبر مع مرور زمن الحرب

واستمرارها, فظهرت أعراض غريبة على بعض السجناء مثل السعال الدموي والهزال واصفرار الوجه والدمامل الكبيرة التي تشبه درنات البطاطا وعزا ذلك الأطباء الذين معنا إلى انتشار مرض السل, وقال بعضهم ربما هذه الدمامل نوعُ من الطاعون)) (55).

ويلجأ رجال الأمن إلى التعذيب النفسي من خلال عامل الخوف ، وبث الرعب في نفس السجين بسماعه لأصوات مرعبة ((غرفة الأصوات زنزانة صغيرة ظلماء, تثبت فيها مكبرات صوت تجسم الأصوات المخيفة, والأصوات فيها هي عبارة عن حشرجة موتى, لهاث, صوت تقطيع وكسر عظام, أصوات ذئاب, وصراخ وعويل مرعب, وأصوات أخرى غريبة ومفزعة لا يمكن سماعها في الواقع الطبيعي)) (56).

فضلا عن الألفاظ التي تستخدم من رجالات السجن ـ السلطة ـ وهي الفاظ تتصف بالذلة والإهانة فالسلطة تعمل على اضعاف روح التحدي عند السجين من خلال استخدام هذه الألفاظ لتحطيمه إمام بقية السجناء ، ليكون التحدي رد فعل السجناء ((التفت إلينا المفوض يحيى وبجانبه العنصر الأمني خليل وهو شاب متهور لا يجيد مهنة سوى التعذيب وانهالوا علينا بالهراوات والضرب واللكم مع الشتائم والنعوت البذيئة وراحوا يسألوننا:

ـ هل انتم عرب أم فرس مجوس؟ قلنا

ـ نحن عراقيون. نحن عراقيون.)) (75) فاللغة المبتذلة والتشكيك في الولاء يترك أثراً كبيراً في نفس السجين ، لاسيما ان اغلب السجناء ينتمون إلى طبقة من المثقفين ومن ثمَّ يكون هذا الكم من التجريح مؤثراً في نفوسهم .

التشكيل الزمني لفضاء السجن :

لكل سرد زمنه الخاص به، لأن الزمن بمثابة المركز الذي تدور حوله وفيه بنية السرد ككل. ورغم هذه المركزية إلا أن الزمن السردي ليس شكلا ثابتا، بل يختلف باختلاف طبيعة السرد ذاته. فالسرد الذي يتحدث عن الواقع يختلف عن السرد الخيالي، ومن غير الممكن أن يكون ثمة سرد بلا بنية زمنية، لأن الزمن هو إطار كوني شامل، ويمثل الحيز الذي تجري فيه الأفعال والأحداث. وبالتالي فان الزمن في رواية (شمال مدينة القصب) ينتمي إلى ما يعرف بالزمن النفسي ليترك أثره في نفوسهم وأجسادهم فعبد الملك مرتاض يصف الفضاء السردي أو ما يسميه بالحيز بأنه عالم دون حدود وبحر دون سواحل وليل دون صباح ونهار دون مساء، إنه إمتداد مستمر مفتوح على جميع المتجهات وفي كل الأفاق، ((مرت ساعات الليل موحشة يخنقها زحام الأنفاس والظلام الحالك وصراخ المجانين والمتذمرين من الجوع والعطش, وبدت كأنها دهور لا تنتمي لزمن فلت من عقال الحياة والكون.)) (58).وغالبا ما يعكس هذا الزمن النفسي معاناة الإنسان ((يمر الوقت بطيئاً وساكناً وقلقاً موزع ما بين أوقات الصلاة ووجبات الطعام, وبعض الحركة البسيطة في الزنزانة, بينما يكون الليل مؤلماً ومضطرباً بسبب الهرش والحكة, فما أن تضع البطانية على جسدك حتى يتحول الليل إلى جحيم.))(59).وفي محاولة لكسر الزمن ورتابته يلجأ البطل في لحظة النوم أو السكون بالانتقال إلى دياره، ((أسندت جسدي للجدار في المكان الذي حُدد لي, وطارت الروح من خلال الكوة الصغيرة في الجدار الشرقي إلى الفضاء, إلى الخارج, إلى قرية القصب, إلى الذين سهدتٌ ليلهم بأشواك العذاب والفقد, ودهشة السؤال وهامت تطوف المحطات, وتتصفح وجوههم وعيونهم الذابلة, يا تُرى علموا بي الآن أني في هذا المكان, وكيف هو شعورهم, وماذا يفعلون؟ وكيف يكون شعورهم لو علموا أنني في أمن الناصرية؟)) (60) ومرد هذا الشعور هو تقنية الاسترجاع السردي من جهة و الانتقال إلى لحظة زمنية مختلفة ، فهذا الانتقال أو التمهيد للانتقال خلق لدى المتلقي شعورا تصاعدياً بالحركة الزمنية، وأنه يترقى ضمن مستويات بنيتها الدالة على الاختلاف زمن السرد. في زمن لا واقعي أو لنقل هو زمن اللاوعي ،إننا هنا أمام علاقة متداخلة بين الزمن ونفسه، فهو يتجه من الماضي إلى الحاضر، ومن المستقبل إلى الماضي، فالسجين في كثير من الاحيان يفقد في اللحظات الأولى لدخوله السجن الأهل ، مما يؤثر سلبيا على الشخوص ، فيكون الصراع بين الوضع الجديد في السجن ، وبين الخوف على الأهل في مواجهة الحياة مفردهم و فلا يجد إمامه سوى الأمنيات في رؤية الأحبة بخلجات وجدانية ، وأحاسيس مرهفة ، تثير الأسى والندم والحسرة ، فلا يجد إمامه إلا الإسراء للأهل ، ((تراجع الذهن يجر الذاكرة إلى أيام السلام والبراءة, لكي يقفز من هذه العربة فتجلت حقول رز غرست في الطين تحت سطوع شهر تموز تلوذ بالبردي وتحتضن المياه, وتنفث أريجاً سابحاً في الفضاء لم تجود الحياة بعطره منذ لحظة فراره في ذلك الزمن))(61) وهو أشبه بالتعويض ، فهو يعوض نفسه بقربه منهم ، لينتهي إلى التمني ، والتمني رغبة خيالية في الغيب ، يأسا منه في كل ما هو

خارج السجن . فلم يكن السجن إلا بعدا مكانياً عن الأهل ، يمثله الجسد ، أما روحه فكثيرا ما كانت تسري ليلا إلى أماكن يحبها أبو فاطمة . لاسيما مسكنه في البادية تلك الخيمة التي تضم زوجته وابنته . فهو يهرب نفسيا لا جسديا.

إن الروايات التي تتحدث عن السجون تعمل على كشف المخفي من التاريخ ، واظهار المأساة التي يعاني منها الأنسان المقموع خلف الجدران المؤصدة ، وتمنحهم الحرية بالكلمة . فاستطاعت ان تصور مدى الظلم والتعسف والممارسات إلا إنسانية في وقت انعدمت فيه وسائل التوثيق، فالتاريخ كما معروف يكتب بأقلام السلطة ومن ثَمَّ يغيب الحقيقة ، ولعل رواية (شمال مدينة القصب) هي تسجيل فني لواقع سياسي مغيب . وتعري مدة مظلمة لسجن تغاضت عنه كتب التاريخ ، فسجون السلطة لم تكن كما تعرف عن السجون ، بل كانت جحيما حقيقياً يفقد فيه الأنسان انسانيته ، حيث التعذيب ، والانقطاع عن الأهل وعن الحياة ، وفقدان الاحساس بالزمن.

الخاتمة :

- إن الرواية جاءت بتعبير دقيق عن السجن مما جعلنا نتألم مع بطل الرواية ، في مكان قاس .

ــ الحراس اشخاص يدافعون عن وجودهم داخل السلطة ، لانهم مجرد أداة تنفذ متطلبات السلطة ليبقى في مكانه.

ــ مارس التعذيب الجسدي والنفسي للنيل من شخصية السجين ، ــ لقد كانت آلام البطل النفسية فضلا عن آلامه الجسدية متنوعة ، وصدمته بطبيعة الناس وغدر الزمان .
- الرواية تطرح مأساة الأنسان العربي المقهور في وطنه ، والمسحوق من قبل السلطات ، لكن هذا القهر يقابله نهوض من قبل شخص أو شخوص قادرين على التغيير ، وخلق أجيال تأخذ على عاتقها مشعل التغيير

ــ ــ لقد وصف الروائي المشاهد المؤلمة في السجن اعتمادا على الوقائع .

ــ إن الرواية تدين الواقع السياسي المتعفن ، الذي لم يحترم إنسانية الإنسان ، فهي تقدم لنا فترة مظلمة من فترات التاريخ .

الهوامش:

1- الادب والسياسة ، عبد الكريم ناصف ، مجلة الموقف الأدبي ، اتحد الكتاب العرب دمشق ، العدد 388 : 47

2- ينظر اللغة واللون ، أحمد مختار عمر : 186.

3-ينظر : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت , مادة (حمر)

4- ينظر : اللون في الشعر العربي قبل الإسلام , ابراهيم محمد علي , ط1, لبنان , 2001م , 57- 58

5- شمال مدينة القصب، نعيم كرم الله ، السرد للطباعة والنشر ، بغداد ، 2022 :13

6- ينظر : أدب السجون من خلال نماذج قصصية فلسطينية ، فوزية سعيد ، جامعة 09 افريل تونس ، 1990 : 31 .

7- شمال مدينة القصب :12

8- بنية الشكل الروائي 60، حسن بحراوي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ،1990

9- المصدر نفسه :14

10- المصدر نفسه :16

11- المصدر نفسه :54

12- المصدر نفسه:48

13- المصدر نفسه :322

14- المصدر نفسه :330

15- المصدر نفسه :53

16- المصدر نفسه :60

17- المصدر نفسه :102

18- الكاتب والمنفى ، عبد الرحمن منيف ، المؤسسة العربية للدراسات ، المركز الثقافي العربي ، عمان ، الدار البيضاء ، 2001 : 237

19- المصدر نفسه :110

20- المصدر نفسه: 113

21- المصدر نفسه:114

22- المصدر نفسه:34

23- ينظر : شعراء أمويون نوري حمودي القيسي، دار الكتب للطباعة والنشر – الموصل،1976: 174/1و 161

24- المصدر نفسه:42

25- المصدر نفسه:53

26- المصدر نفسه:107

27- المصدر نفسه :318

28- المصدر نفسه:29

29- المصدر نفسه: 12

30- المصدر نفسه:48

31- المصدر نفسه:25

32- المصدر نفسه:132

33- المصدر نفسه:133

34- المصدر نفسه:308

35- المصدر نفسه:318

36- المصدر نفسه:248

37- المصدر نفسه:301

38- المصدر نفسه:134

39- المصدر نفسه:146

40- الزيني بركات ، جمال الغيطاني ، كتاب اليوم ، العدد 277 يناير ، 1988 : 165

41- المثقف والسلطة د. سماح ادريس ، بحث في التجربة الناصرية، 1992 :19

42- شمال مدينة القصب : 12

43- المصدر نفسه :27

44- المصدر نفسه :27

45- المصدر نفسه :32

46- المصدر نفسه :49

47- ينظر السجن السياسي في الرواية العربية ، سمر روحي فيصل منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،1983: 34

48- شمال مدينة القصب :65.

49- المصدر نفسه : 104

50- المصدر نفسه:104

51- المصدر نفسه:207

52- المصدر نفسه:312

53- طبيعة التجربة الفنية في روايات السجن السياسي ، سمر روحي فيصل ، مجلة دراسات عربية ، عدد 11- 12 سنة 1983 : 142

54- المصدر نفسه:60

55- المصدر نفسه:120

56- المصدر نفسه:317

57- المصدر نفسه:118

58- المصدر نفسه: 13

59- المصدر نفسه: 124

60- المصدر نفسه: 67

61- المصدر نفسه:95

المصادر والمراجع

1. أدب السجون من خلال نماذج قصصية فلسطينية ، فوزية سعيد ، جامعة 09 افريل تونس ، 1990
2. ـ الادب والسياسة ، عبد الكريم ناصف ، مجلة الموقف الأدبي ، اتحد الكتاب العرب دمشق ، العدد 388
3. ـ بنية الشكل الروائي 60، حسن بحراوي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ،1990
4. ـ الزيني بركات ، جمال الغيطاني ، كتاب اليوم ، العدد 277 يناير ، 1988 .
5. ـ السجن السياسي في الرواية العربية ، سمر روحي فيصل منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،1983.

6. ـ شعراء أمويون نوري حمودي القيسي، دار الكتب للطباعة والنشر – الموصل،1976.
7. ـ شمال مدينة القصب، نعيم كرم الله ، السرد للطباعة والنشر ، بغداد ، 2022 .
8. ـ طبيعة التجربة الفنية في روايات السجن السياسي ، سمر روحي فيصل ، مجلة دراسات عربية ، عدد 11ــ 12 سنة 1983 .
9. ـ الكاتب والمنفى ، عبد الرحمن منيف ، المؤسسة العربية للدراسات ، المركز الثقافي العربي ، عمان ، الدار البيضاء ، 2001 .
10. ـ لسان العرب ، دار صادر ، بيروت , مادة (حمر)
11. ـ اللون في الشعر العربي قبل الإسلام , ابراهيم محمد علي , ط1, لبنان , 2001م
12. ـ المثقف والسلطة د. سماح ادريس ، بحث في التجربة الناصرية، 1992 .